خلائق تنقصنا

الوثنية الاجتماعية

لاسماعيل مظهر

وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ ان نعبد الاصنام

[قرآن كريم]

في اليوم الذي تستكمل فيه جمعية من الجمعيات الانسانية اسباب الأمن ، وتجتنب عبادة الاصنام، تتفتح امامها ابواب الحضارة وتتئد خطواتها وتستقيم سبيلها التي تُسلمها الى معارج القوة النفسية . ولا اقصد هنا بعبادة الاصنام اتخاذها أرباباً من دون الله ، فقد كفانا هداة الانسانية الاصنام وعبادتها ووجهونا إلى النور فمسناه وأبصرنا أشعته الوضاءة تخترق الينا ظلام القرون الأولى . والظاهر أنّ الجمعيات الانسانية فيها خاصية تجعل حياتها بغير الأمن موصولة بعبادة الاصنام . فحيث لا يكون الأمن تكون عبادة الاصنام ، وعبادة الاصنام لا تكون الا حيث ينتفي الامن ويهدد أبناء آدم في اقواتهم وارزاقهم واقدارهم المعنوية بصفة انهم من الآدميين . لهذا نجد ان كل جمعية من الجمعيات سادتها سلطات الأفراد واستبدت بهم ارادة الكبراء من السادة والنبلاء ، انحدرت سريعاً الى عبادة الاصنام مصبوغة بصبغة جديدة . فانهم ان لم يعودوا الى عبادة اوثان يخلقونها بايديهم ، خلقوا في مخيلاتهم اوثاناً يسطها الوهم ويفخمها الخيال ، فتصبح حياتهم وقد امتلأت بالاوثان الكثيرة المتعددة ، فهذا له وثن في صورة زعيم، وذاك له وثن آخر في صورة رئيس ، وثالث له وثن في صورة موظف، ورابع له وثن في صورة وزير، وخامس له وثن في صورة وظيفة او كرسيّ ما يملؤه في فراغ الحكومة . ومن هنا ينحدر الناس انحداراً آخر فيخيل اليهم ان تلك الاوثان التي جسمتها مخيلاتهم وفخمتها أوهامهم قد أصبحت جزءاً من حياتهم وقسماً من أقاسمهم التي يرددونها في صدورهم ، فتنكبت فيهم كل صفة انسانية عالية ليحل محلها صفات لا تكون الا حيث يكون الخوف من الاوثان بما يحوطهم به الخيال من الأساطير والخرافات التي تتحول مع الزمن فتصبح عقائد ثابتة

هذه الصورة التي رسمتها في الأسطر السابقة ، على بشاعتها وغلظتها ، وعلى ما فيها من السيئات والقبائح ، ينطبق أكثر ما فيها على مجتمعنا ، بل اني لا أبالغ اذا قلت انها صورة مرسومة من المجتمع الذي اعيش فيه واشعر بنقائصه ، وأنشد له الكمالات . صورة تعبر ادق تعبير عن فكرات وآراء يحاول الكثيرون ان يخفوها في انفسهم حذر أن نبطش بهم الأوثان المفخمة زوراً ، المضخمة بهتاناً وإفكاً . مثلهم في ذلك مثل الانسان في عصور الظلام عند ما كان يجبل من الطين او الحجر صورة يتخذها وثناً يعبده . فهو آلهته ولعبته ما دام بين يديه يصوره ويجلو اجزاءه وتقاسيمه، فاذا فرغ من ذلك العمل الفني وخرّ له ساجداً، ملأته الرهبة واخذ بخناقه الخوف والرهب فانكمش وراح يحوط وثنه بانواع الاساطير وضروب الخرافات ، ويحيك من حوله الحوادث وينسب اليه الكرامات، ويضفي عليه من القوى ما يشاء وهمه ان يضفي عالم تحاك الطبيعة في تضاعيف الوجود منه شيئاً

***

والانسان البدائي إن فعل ذلك وساقه وهمه إليه ؛ فهو انما يفعله سوقاً بعامل من الحياة يدفعه الى البحث وراء قوة تحميه من أعاصير الطبيعة التي تحوطه والسباع التي تنهشه والأمراض التي تبتليه والرياح التي تتناوح من حوله وهزيم الرعود التي تصم أذنيه . أما الانسان الحالي، الانسان الذي تقول إنكاً وزوراً انه بلغ من مدارج الرقي مبلغاً جعله يفقه ما هي قيمة الحياة عامة ، وما هي قيمة الحياة الانسانية خاصة ، وانه تقدم بقوى عقله تلك الذروة التي بلغ عندها حد تقديس المثاليات بما فيها الحرية والصراحة والصدق الى آخرما في قائمة الفضائل التي عددها الفلاسفة ورجال الأخلاق . ذلك الانسان انما يعود بعد طول الجهاد في سبيل التحرر العقلي والنفسي الى عبادة الأوثان في صور جديدة ، سوقاً هو كذلك بعامل من الحياة يدفعه الى طلب النجاة من قسوة النظام الاقتصادي الذي يحوطه وقسوة نظام المجتمع الذي يجعل للطبقات شأناً لا تخوله لها القوانين ولا تجيزه الشرائع . أما اذا كانت نتيجة ذلك الجهاد الطويل الذي بذل الانسان فيه غاية الجهد ، والصراع الفذ الذي يروي لنا التاريخ وقائعه قائمة بين الانسان وقوى الشر والاستعباد ، أن تعود الجماعات الانسانية الى عبادة الأوثان ممثلة في اشخاص من رجال الحكم او الصحافة أو المشعوذين ، أو ممثلة في حاجات الحياة التي يمنعها النظام الاجتماعي عن كل من يريد ان يتحرر من تلك الأوثان التي اقيمت حول طبقاته وساقتها سوقاً الى الذلة والخضوع والاستسلام ، فلأجدرنا ان نقول ان الانسان لم يربح من جهاده المرير خلال كل الاحقاب الماضية الا أمراً واحداً ، هو الاعتقاد بأنه في بداءة الجهاد ، وان الماضي برمته لم

يكن الا مقدمة لم تفصح بعد بعض مراحلها . والا فما الفارق الحقيقي بين ذلك الوثن الذي كان يصوره الانسان البدائي بأصابعه ويخلقه في الصورة التي تلذ له ليعبده من بعد ذلك ويسجد له ، وبين أوثان العصر الحاضر ، كذي السلطان الحكومي الذي يستخدم سلطانه في سبيل استعباد الذين يلونه في المرتبة ، او المشعوذ الذي يستهوي صغار العقول ، او الدجال السياسي الذي يسوق أمامه الجماهير سوقاً ، مستغلاً فيهم الغفلة أو الجهل ، أو متخذاً من سذاجته وتحيره سبيلاً الى اخضاعهم ، مستخفياً وراء كلمات رنانة مما أدخل الفلاسفة في قاموس المثاليات . تلك المثاليات التي لم يؤمن بها دجال واحد من دجاجلة السياسة في عصر من عصور التاريخ . وانما اتخذوها أداة ووسيلة ليكفل لهم بها اضافة قوة الى انفسهم ترفعهم مع ما يرفعهم من بقية ضروب الدجل والاختلاق ، الى مرتبة الأوثان

***

وفي الحق ان الانسان قد جهد وعمل طوال عصور مديدة على ان يبيد تلك الأوثان على اختلاف صورها ، وأن يرمي بها في حفر الماضي . ولقد كان جهاده في سبيل ذلك جهاداً صادقاً أفنى فيه كثيرون ممن تضمهم زمرة الانسانية أعمارهم الكريمة . ففي عصر القطائع عاش الناس وهم يعبدون ذلك الوثن المريع الذي ملك رقابهم وأرزاقهم وأولادهم ونساءهم . فقد كان المقطع الأعظم الوثن الأكبر ومن تحته رؤساء قطائعه لكل منهم من قوة الوثن بمقدار ما يملك من رقاب وحطام . فعمل الناس جاهدين على ان يحيوا في ظل تلك الأصنام حياة الذل راضين به قانعين على ظواهرهم ، بينما كانت قوى التقدم تعمل في سبيل نشر الديمقراطية والعمل على احياء الشعوب برد حقوقها الطبيعية اليها . على ان ذلك الجهاد الذي أخرج الناس من ظلمات عهد القطائع الى عهد الحرية الديمقراطية ، ان كان قد توج بالقضاء على الوثن الأول ، فان انقلاب النظام الاقتصادي الذي ترتب على شيوع النظم الديمقراطية ، قد رمى الأمم فيما رماهم به بأوثان جديدة لم ينقص معها عدد الأوثان الأولى بل زاد زيادة فادحة أثقلت من الانسان كاهله وحملته من الأوزار ما لا يطيق . واذا كانت الحرية الصحيحة تقضي بأن يمول المجتمع كل أفراده بأن يجد كل منهم رزقه بعمل يعمله بحسب اختياره وفي نطاق ارادته ، وان يؤدي ذلك العمل بالصورة التي تلذ له وترضيه ، اذن فما أبعدنا بنظامنا الحالي عن الحرية ، وما أقربنا الى العبودية التي هي أبين شيء في نظام تسوده عبادة الأوثان . وبك ان تتصور نظاماً تكلفك فيه كلمة حق أو قولة صريحة لأن تبعد عاملاً عن عمله أو موظفاً عن وظيفته أو زارعاً عن حقله أو سياسياً عن حزبه ، لا ليجد كل منهم بعد ذلك عملاً يعمله او وظيفة يشغلها أو حقلاً يزرعه أو حزباً يرحب بمواهبه ، بل ليجد ان جميع الأبواب قد سدت ، وان جميع المنافذ قد

أوصدت ، وإن الفقر أخذ يقرع عليه أبوابه، وإن الخراب بدأ يدب في كيانه الاجتماعي ، ومنه أصبح منبوذاً من المجتمع شريداً طريداً يلاحقه الجوع ويصارعه العري ويجالده الخوف ، إلى أن يسقط في مدارج المجتمع مدرجاً بعد مدرج حتى تبتلعه الهاوية فتنبذه كالعظم النخر أو الهشيم الذي تذروه الرياح

كل ذا يحدث ويقع لأن المجتمع بطبقاته يعبد الأوثان . وإن مجتمعاً أطبق على أن يكون وثنيًا في نظامه الاجتماعي ، من شأنه أن يقوم عرفه السائد على أن يحفظ هذه الصورة البشعة قائمة فيه . فإذا خرج على ذلك المجتمع منبوذ استقامت أخلاقه وتجمّل ورعه وضاقت حريته عن أن تسع الاستعباد ولم تلن قناته للذل وصلب عوده أمام الجبروت الوثني الذي تتخذه الأوثان الاجتماعية سبباً للظفر بفرائسها ، شعرت جميع طبقات ذلك المجتمع ، الأوثان منهم وعبدة تلك الأوثان جميعاً ، أن ذلك المنبوذ إنما هو نذير شر ورسول سوء ، يهدد نظامهم الذي ارتضوه ورضوا به

وكان هذا هو السر في أن المجتمع الموبوء بتلك الصورة الوثنية إذا خرج عليه منبوذ ، قسى عليه وشدّ عليه الخناق حتى تخمد منه الأنفاس ويروح مستذلاً ويموت فيكون نسياً

أما وقد ذكرنا الديمقراطية فإنه ينبغي لنا أن نعرف مقدار ما في ذلك النظام من قوة يمكن أن تقضي على صورة الوثنية الاجتماعية التي ترزح في مصر تحت أعبائها . وأول ما نقول أن الديمقراطية كنظام مكتوب قد استكملت مجمل ما جاهد الإنسان في سبيله من المثاليات . أما كنظام مطبق فإن تغلب المثاليات عليها أو تغلب الوثنية الاجتماعية ، أمرٌ راجع إلى كفاءة الذين يطبقونها

فعلى أية صورة طبقنا الديمقراطية وبأية روح طبقناها ؟ ومحصل ذلك أن النظام الديمقراطي لكي يكون مثاليّ الصورة والأثر ، ينبغي أن يكون شيئاً حيًّا ماضياً في قلوب الذين يطبقونه ويتخذونه أساساً لنظامهم السياسي والتشريعي ، وإلا ساء التطبيق وإن سما المبدأ ، وماتت بموته المثاليات ورفعت الوثنية الاجتماعية رأسها الأقرن الذي هو أشبه برأس الحية ، لتنفث في عودها وسباتها ذلك السم الذي يفسد الحياة

***

رنت الصيحات الأولى التي تجاوبت بها أنحاء مصر في سبيل الديمقراطية منذ نيف وثلاثين سنة عندما قامت بعض الهيئات تطالب بإعلان الدستور ووضع قانون التشريع الأساسي على المبادىء الديمقراطية . وأذكر أن الهيئة التي قامت تنادي بذلك كانت تناوىء الخديوية في ذلك العصر متهمة عند الرأي العام ، وكان دائرة محدودة ، بموالاتها للاحتلال البريطاني . فقامت

هيئة أخرى ذات تمثل بجد على حلاة د ذكر انهم أصحاب الدستور بانهم انما يطالبون بالدستور إضافاً للخضيوية وقصّاً من حواشيها تثبيتاً لاقدام الانكليز في مصر . ودار الزمن دورته المعروفة وأعلن الدستور باسمي الذين سموا له ، والله يعلم اي يد كانت من وراء ذلك الأمر كله ، فأعددنا دستوراً على الورق وأخذنا نطبقه معلنين ان الأمة مصدر السلطات وان الحكم للأغلبية في مجلس النواب . ولكن هل أغنانا ذلك عن الماضي شيئاً ؟ الواقع ان موقفنا اليوم لم يتغير الا في الظاهر . فالوثنية الفردية التي عملنا على اقتلاع جذورها منذ الساعة التي صحنا فيها بوجوب اعلان الدستور ما زالت قائمة بكل مخالبها ، والوثنية الاجتماعية التي تصورنا أن الدستور خير كفيل بالقضاء عليها هي بعينها الوثنية التي عانينا منها الأمرين منذ قرون موغلة في القدم

فعلى الرغم من أن الدستور كفل الحريات واباحها في حدود القانون ما زلنا ننظر الى الحكومة نظرة الوثني الذي ينظر الى ربه الذي خلقه هو بيده ، وما زلنا ننظر الى كل من يمثل سلطة عليا من سلطاتها نظراً يقرب من النظر الى وثن أصغر يمثل وثناً أكبر ، وما زلنا نشعر بأن تدرج القيمة الوثنية لرجال الحكومة تتدرج ارتفاعاً وانخفاضاً بارتفاع درجة الوظيفة وانخفاضها وضخامة المرتب أو ضآلته . وكذلك لم نشعر في خارج الدائرة الحكومية بأن الحرية قد حررتنا من الوثنيات الأخرى الخارجة عن وثنية الحكومة ، فخلقنا ، وكأنما نخلق بدافع من أنفسنا رسيس فيها ، أوثاناً في الصحافة وأوثاناً في الادب واوثاناً في الاقتصاد ، وخلقنا غير هؤلاء أوثاناً واوثاناً جسمناها ووضعناها في حجرة مدير الاقليم ومأمور المركز ومعاون البوليس والعمدة ، ورحنا نؤمن بأن هيئة الحكم ونظام الاجتماع لا يقومان الا على مثل هذه الوثنية التي إن أساءت الى الخلق بشيء ، فانها انما تفسد نظام الحكم وتحور القوانين والشرائع الى صالح الأوثان المعبودة لا الى صالح الوثنيين

***

ان الواجب الاول على الاحرار من رجال هذه الامة أن أرادوا إن يبنوا المستقبل أن يحطموا تلك الاوثان . وستدور بحوثنا المقبلة حول كل من الصور التي تجسمت فيها هذه الاوثان الاجتماعية ، والسبيل التي تسلم الى تحطيمها